



إسهامات جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في تعليم اللغة

العربية وصون مكانتها

Article entitled: Contributions of the Association of Algerian Muslim Scholars to the teaching and maintenance of the Arabic language

عبد الرحمان بوزنون

أمحاضر ب بقسم اللغة العربية بجامعة امحمد بوقرة بومرداس.

العنوان: 149 حي لوناوسي، الدويرة، الجزائر.

Adress_educ@hotmail.com

تاريخ القبول: 2019-05-22

تاريخ الاستلام: 2018-07-25

ملخص -

الناظر في التراث اللغوي والموروث الأدبي الذي خلفه لنا أعلام جمعية العلماء المسلمين الجزائريين يدرك بجلاء المعاني السامية والمقاصد الراقية التي كان أعضاء الجمعية يسعون لتحقيقها ويجدون لبلوغها، ولعل أبرز ما يرمقه من تلك الأهداف وأسمى ما يسترعي انتباهه من تلك الغايات سعيهم للرقى بفكر المجتمع الجزائري والسمو بأفكاره والنهوض بطموحاته قصد بعث روح الثقافة الأصيلة في ثناياه، وتجسيد الملمح الحضاري في جوانبه، وتثبيت دعائم الهوية الوطنية فيه.

واستغلال هذا الحراك الأدبي لتحقيق ذلك القصد التوعوي بناء أعضاء جمعية العلماء على منهجية متكاملة ومسلك متسلسل، ينطلق من تقرير أهمية اللغة العربية وبيان فضلها وجليل مكانتها مع إيضاح صلاحيتها لوصف مختلف الفنون ودراسة سائر العلوم، كما يشمل بحث أبواب العربية وتفصيل مسائلها بمختلف مستوياتها، وصولا إلى تنزيل تلك المباحث وتطبيقها على النص القرآني وتراث العرب الشعري والنثري لإيضاح المعاني وبيان الدلالات.

ويسعى هذا المقال للتدليل والتحليل لبعض الإسهامات اللغوية المنصبة في هذا المنحى، في مختلف الأعمال التي جادت بها قرائح أئمة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين عبر كثير من المصنفات والمحاضرات والمقالات.

الكلمات الدالة:

جمعية العلماء، اللغويات، الحضارة، التدريس.

Summary -

The visionary of the linguistic heritage and the literary heritage that was left to us by the imams of the Association of Algerian Muslim Scholars clearly recognizes the lofty meanings and the noble aims that the Association's flags sought to achieve and find to reach them. Perhaps the most prominent of these goals and the highest attention to these goals are seeking to promote the thought of Algerian society and the ideals of his ideas And to promote his ambitions in order to revive the spirit of authentic culture within it, and to embody the cultural aspect in its aspects, and consolidate the foundations of national identity in it.

And the exploitation of this literary movement to achieve this purpose of awareness built by the members of the Association of scientists on the methodology of an integrated and a sequential process, starting from the report of the importance of Arabic language and the statement of virtue and great position with the clarification of its validity to describe the various arts and the study of other sciences, and also includes the search of the doors of Arabic and detail the issues at various levels, Download and use these mabahiths on the Qur'anic text and the Arab heritage of poetic and prose to clarify the meanings and meanings.

This article seeks to analyze and analyze some of the linguistic contributions that have been made in this regard in the various works of the imams of the Association of Algerian Muslim Scholars through many works, lectures and articles, such as the linguistic contributions of its president, Abdelhamid Ben Badis, Us and other writers and flags of the Assembly.

Keywords-

Linguistics, Civilization, Association of savenets, Teaching.

مقدمة:

من المتعارف عليه بين مختلف الأمم والثقافات أنّ مقوّم اللغة أحد أبرز مظاهر الخصوصية الحضاريّة وأهمّ المعبّرات الرّئيسة عن مسألة الهوية، ورافد أساس للنّهضة الفكرية والارتقاء المعرفي والعلمي، وتنبع الأهمية البالغة لهذا الجانب في تعلّق اللغة التي هي لسان الحضارة وقلّمها بالتّحدّي الثّقافي الحاصل بين الأمم ، والتّسابق المحموم بين الحضارت من أجل فرض ثقافاتهما وتمكّين كافّة توابثها وعناصرها، انطلاقاً من عدّهـم اللغة صمام الأمن القومي، وعنوان الاستقرار الحضاري، والضعف والهوان الذي يلحق هذه اللغة ينسف الهوية، ويدمر باقي المقومات من أساسها.

وقد ارتأيت الإسهام في إثراء هذا المجال من خلال بحث التجربة اللّغوية التي خاضتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في إطار جدلية الذات والآخر مع الاستعمار الفرنسي، وذلك انطلاقاً من إشكالية رئيسة تستنطق منهجية أئمة الجمعية في نشر اللغة العربيّة وتتبع مسلكهم في بحث مسائلها ومدارسه أبوابها ، والعمل على بعثها وإحيائها في وسط أهلها في مختلف أنشطتها العلميّة وأعمالها الإصلاحيّة .

ولعلّ أبرز ما نلاحظ اعتناء علماء الجمعية به هو بيان متانة علاقة لغة الضاد بثقافتنا الجزائريّة وشدوّ التّلاحم بينها في مختلف ثوابثها وسائر مقوّماتها، ومن ذلك تركيزهم على كون اللّغة العربيّة روح الإسلام قلباً وقالبا ، ونلاحظ هذا جلياً في جعل مؤسس هذه الجمعية العلامة المصلح عبد الحميد بن باديس (1889 - 1940) تعلم اللّغة رديف لتعلّم الإسلام وملازماً له، وذلك في قوله: "لا بقاء للإسلام إلّا بتعليم عقائده وأخلاقه وآدابه وأحكامه، ولا تعليم له إلّا بتعليم لغته"¹.

وهذه العربيّة ليست مجرد لغة منتسبة إلى العرب، بل هي اللغة الأمّ التي يشترك فيها كلّ من يدين بالإسلام، إذ هي وعاء هذا الدّين وحافظة قرآنه ومسجّلة تراثه، وإلى هذا أشار المفكر والأديب والمصلح محمد البشير الإبراهيمي (1889 - 1965م) - الذي خصّص للعربية حيّزاً كبيراً من مقالاته ومحاضراته - في قوله: "وأما إحياء مجد اللسان العربي فالأنّه لسان هذا الدّين والمترجم عن أسرار ومكنوناته، لأنّه لسان القرآن الذي هو مستودع الهداية الإلهية العامّة

للبشر كلّهم، لأنّه لسان محمّد بن عبد الله - صَلَّى الله عليه وسلّم - صفوة الله من خلقه، والمثل الأعلى لهذا النوع الإنسانيّ الذي هو أشرف مخلوقات الله، ولأنّه لسان تاريخ هذا الدّين ومُجلّي مواقع العبر منه" بر.

وليس الإمامان ابن باديس والإبراهيمي وحدهما من نبّه إلى هذا الترابط وأوضح هذا التّعالق، فهذا أحد أعلام الجمعية الإمام العربيّ التّبسيّ (ت 1957 م) يدعو ويحثّ النّاس على تصحيح هذه اللغة وتطهيرها ممّا شابها من النّقائص لما لذلك من أثر في دينها فيقول: "ولتردّ على اللغة العربية شبابها، وتحي ذكرها بكل الطرق والذرائع، وليفهم الشعب العربي الإسلامي الذي تحولت لغته إلى رطانة في منطقته، وخلط في مفرداته، حتى أصبح لسانه مزيجاً: أن لا دين، ولا قومية، ولا أمة، ولا أي مقوم مميز للأمة إذا هي مضت فيما هي عليه من الجهل بلغتها"³، ويقول في موضع آخر: "ولكن لغتنا إليها يعود بقاء الدين، ويظل مهيمنا على القلوب، ماسكا بالأرواح"⁴.

ولم يقصر الإمام الشاعر المصلح الطيّب العقبيّ (ت 1960 م) الاعتناء بقوانين العربية على أهل الأدب وفقهاء الأمة، بل أوجب ذلك على المهتمين بالصحافة والإعلام، ومن ذلك ما سطره في مقال: (الصحافة من هم رجالها؟)، إذ قال: "وليس معنى رقي الصحافة في نظرنا هو صقالة ورقها واتساع مساحتها في شكلها الطولي والعرضي، كلا بل معنى رقيها عندنا يظهر في مبدئها والغاية التي تعمل لها بشرط أن تكون تعبر عن شعورها في ذلك كله بعبارة صحيحة وأساليب لا تخرج عن قانون العربية الصحيح، ذلك الرقي الذي نعينه، وله وحده مفعوله في نفوسنا"⁵.

ومن القصائد التي سطرها أحد أعلام الجمعية ممّا يدرك من خلاله أهميّة العناية بهذا الجانب ما جاء في أبيات شاعر الحركة الإصلاحية محمد العيد آل خليفة (1904م - 1979م) الذي لقبه الشيخ عبد الحميد بن باديس بأمرير شعراء الجزائر، إذ قال في قصيدته "العروبة أمنا الكبرى":

الملة السمحاء أصرة لنا ❖❖ فوق الأوامر والعروبة مولد
هيات تقدر أن تفرقنا يد ❖❖ والله يجمع شملنا ومحمّد
إنّ العروبة أمنا الكبرى التي ❖❖ في الأمهات نظيرها لا يوجد⁶

ونلمح في طيّات هذه النصوص المتقدمة من كلام أعلام الجمعية أنّ هذه اللغة تمثل هويّة هذا الشعب في عمومها، وتشير إلى معلم بارز من معالم الانتماء الحضاريّ لهذه الأمة، ألا وهو انتسابها إلى الجنس العربي وتحليلها بشمائل العروبة، ولا ريب أنّ اللغة التي يتعاطف معها الإنسان بفكره وتنجذب إليها روحه هي جنسه وهويته، والثقافة التي يتعاطاها بفكره ويندمج معها وجدانه هي أصله وانتماءه، ويجسّد ذلك الإبراهيمي في قوله: "إنّ اللغة هي المقوم الأكبر من مقومات الاجتماع البشريّ وما من أمة أضاعت لغتها إلا وأضاعت وجودها، واستتبع ضياع اللغة ضياع المقومات الأخرى"⁷.

وفي إشارة جليّة إلى هذا الارتباط الوثيق بين اللغة والفكر يقول الإمام الإبراهيمي في مقام آخر: "لغة الأمة هي أفكارها، وخزانة أسرارها، والأمة الجزائرية ترى في اللغة العربية - زيادة على ذلك القدر المشترك - أنّها حافظة دينها ومصحّحة عقائدها ومدوّنة أحكامها، وأنّها صلة بينها وبين ربّها تدعوها بها وتعترف، وتبوء بها إليه فيما تقتضيه، وتؤدّي بها حقوقه، فهي لذلك تشدّ عليها يد الضمانة"⁸، وماتود أنّ لها بها لغات الدنيا وإن زحرت بالأدب وفاضت بالمعارف، وسهّلت سبل الحياة، وكشفت عن مكنونات العلم"⁹.

وبعد تذييل من الشيخ أوضح فيه غياب المانع من تعلّم بعض اللغات عادّا ذلك أحد وسائل البحث عن الكمال في تتبّع الأسباب الدنيوية المتعدّدة، وحاصرا تحصيل الكمال الروحانيّ وإدراك التمام الإنسانيّ في لغتها الأصلية التي تكوّن منها تسلسلها الفكريّ والعقليّ، عقّب على ذلك بقوله: "وهي لغة العرب؛ ذلك لأنّ لغة العرب قطعة من وجود العرب وميزة من مميّزات العرب، ومرآة لعصورهم الطافحة بالمجد والعلم والبطولة والسيادة، فإذا حافظ الرّنجيّ على رطانته ولم يبيع بها بديلا، وحافظ الصّينيّ على زمزمته فلم يرضَ عنها تحويلا، فالعربيّ أولى بذلك وأحقّ؛ لأنّ لغته تجمع من خصائص البيان ما لا يوجد جزء منه في لغة الرّنج أو لغة الصين.

ولأنّ لغته كانت - في وقت ما - لسان معارف البشر، وكانت - في زمن ما - ترجمان حضاراتهم، وكانت - في وقت ما - ناقلة فلسفات الشرق وفنونه إلى الغرب، وكانت - في وقت ما - هادية العقل الغربيّ الضالّ إلى موارد الحكمة في الشرق، وكانت - في جميع الأوقات - مستودع آداب الشرق

وملتقى قياداته الفكرية، وما زالت صالحة لذلك، لولا غباراً من الإهمال علاها، وعاقاً من الأبناء قلاها، وضيماً من لغات الأقوياء المفروضة دخل عليها¹⁰.

ونستشف هذا المفهوم العام الوارد في كلام خليفة ابن باديس فيما جاء في أبيات لطيفة لمحمد العيد آل خليفة في قصيدته "الشعر والأدب" يقول فيها:
أنا ابن جدي وقومي السادة العرب ❖ ❖ وحرفتي ما حييت : الشعر والأدب
أنفقت وقتي في شعروني أدب ❖ ❖ لا شغل عندي إلا : الشعر والأدب¹¹

ولعلّ منبع هذا الحرص الشديد والاعتناء الأكيد بإحياء اللغة العربية وبعثها من رجالات الجمعية، ومكمن ذلك الإرشاد الملح للنهل من رياضها والاقتطاف من غراسها هو الحالة البائسة والوضع المزرية التي كانت تشهدها اللغة العربية تحت وطأة الاحتلال الفرنسي الذي لم يستهدف الأرض وحدها في غزوه للجزائر، بل حاول القضاء على شخصية الشعب الجزائري بمحاربة كلّ مفردات الهوية الحضارية فيه، واستهداف سائر خصوصياته الثقافية وثوابته الروحية.

وإلى هذا العداء الشديد للغة الجزائريين أشار الإمام الفضيل الورتلاني بقوله: "فمن ناحية العروبة، أعلنوا حرباً على لغتها، لا هودة فيها، وعدوها عدوهم اللدود، الذي يجب القضاء عليه قضاء مبرماً، لتحل محلها اللغة الفرنسية بأي ثمن، فأقفلوا جميع المعاهد التي تدرسها، ثم تدرجوا في إذلالها، فجعلوا اللغة الفرنسية هي وحدها اللغة الرسمية في دوائر الدولة، ومعنى ذلك أن اللغة العربية لم تعد صالحة البتة، لأكل الخبز في الجزائر، والناس من طبيعتهم يحبون الخبز ويحبون الحياة ثم تدرجوا في احتقارها فأصدروا قانوناً يعدها لغة أجنبية، في عقردارها، تعامل كما تعامل كل لغة أجنبية في الظاهر، وتعامل في الباطن وعند التطبيق، معاملة العدو غير المرغوب في حياته"¹².

ولا ريب أنّ غرض المستدمر من فعله ذلك هو تسهيل استكمال تنفيذ المخطط الاستعماري في جوانبه الفكرية والثقافية من خلال فرنسة اللسان والفكر والشعور والروح، وفصل هذا الشعب عن أصوله الحضارية، وتحويل أفرادها إلى أناس بلا انتماء، متكرّين لأصولهم، منسلخين عن قيمهم، غريبين عن حضارة أمّتهم، وبالتالي إنشاء أندلس جديدة، ثم إلحاقها نهائياً بفرنسا.

ويصوّر لنا الشيخ الإبراهيمي هذه الحرب الصليبية التي شنتها فرنسا على اللغة العربية في الجزائر بعد الاحتلال فيقول: "مشكلة العروبة في الجزائر

أساسها وسببها الاستعمار الفرنسي، وهو عدو سافر للعرب، وعروبتهم ولغتهم، ودينهم الإسلام... إلى أن يقول: "وبيان ذلك مع الإيجاز، أن الاستعمار الفرنسي صليبي النزعة، فهو - منذ احتل الجزائر - عامل على محو الإسلام لأنه الدين السماوي الذي فيه من القوة ما يستطيع به أن يسود العالم، وعلى محو اللغة العربية لأنها لسان الإسلام، وعلى محو العروبة، لأنها دعامة الإسلام، وقد استعمل جميع الوسائل المؤدية إلى ذلك، ظاهرة وخفية، سريعة ومتأنية، وأوشك أن يبلغ غايته بعد قرن من الزمن متصل الأيام والليالي في أعمال المحو، لولا أن عاجلته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين على رأس القرن بالمقاومة لأعماله، والعمل على تخيير آماله"¹³.

ولتحقيق تلك المآرب جنّدت فرنسا ترسانة من الإجراءات الإدارية واستعانت بسلسلة من الأحكام القانونية، كان أشدها قانون 8 مارس 1938م، الذي اعتبر اللغة العربية لغة أجنبية، وحظر على المعلمين إلقاء الدروس أو إنشاء المدارس أو النوادي أو الوعظ في المساجد إلا برخصة، وإلا غُرِمَ المخالف وسُجِنَ¹⁴، وقد أشار الشيخ ابن باديس إلى هذا القانون فقال: "أعداء الأمة الجزائرية - وأعداء فرنسا أيضا - يجمعون أمرهم، ويدبرون كيدهم فيستصدرون من الحكومة قرارا وزاريا بعقوبات صارمة على التعليم، ليهدموا هذه الشخصية الإسلامية من أصلها وليقضوا عليها بالقضاء على مادة حياتها.

علموا أن لا بقاء للإسلام إلا بتعليم عقائده وأخلاقه وآدابه وأحكامه، وأن لا تعليم له إلا بتعليم لغته، فناصروا تعليمها العداء وتعرضوا لمن يتعاطى تعليمها بالمكروه والبلاء، فمضت سنوات في غلق المكاتب القرآنية ومكاتب التعليم الديني العربي والضنّ بالرخص واسترجاع بعضها حتى لم يبقوا منها إلّا على أقلّ القليل، ولما رأوا تصميم الأمة على تعلم قراءتها ودينها ولغة دينها، واستبسال كثير من المعلمين في سبيل القيام بواجبهم نحو الدين والقرآن ولغة الدين والقرآن، واستمرارهم على التعليم رغم التهديد والوعيد، ورغم الزجر والتغريم - لما رأوا هذا كله سعوا سعيهم وبذلوا جهدهم حتى استصدروا هذا القانون: قانون العقاب الرهيب"¹⁵.

كما عرّج الشيخ البشير الإبراهيمي على ذكر بعض هذه الملاحظات الشديدة، والتهديدات الأكيدة فقل: "بدأت دعوة المعلمين إلى المحاكم ونقدر أنها ستعم، وأن أول المطر قطرة، وأن الأحكام ستكون بالغرامة والسجن، ولكننا

سندخل هذه المحاكم برؤوس مرتفعة، ونستقبل هذه الأحكام بنفوس مطمئنة بالإيمان، وسندخل السجون بأعين قريرة، وسنلتقي بإخواننا المجرمين في مجالس الأحكام، ومقاعد الاتهام، وحسبنا شرفاً أن يكون ذلك في سبيل ديننا ولغتنا، وحسبنا فخراً أن تكون التهمة فتح مدرسة دينية وقرآنية بدون رخصة، وحسب الاستعمار ديمقراطية أن يحاكم معلمي العربية والإسلام، ويسجنهم على التعليم كما يحاكم المجرمين ويسجنهم على الإجرام في محكمة واحدة وسجن واحد¹⁶.

وموازة مع هذا الحصار الجائر على اللغة العربية والقوانين الظالمة في حق معلميهما شجع المستدمر الفرنسي اللهجات المحلية في التخاطب والمحادثة، وصرف البحوث والدراسات لبحث خصائص تلك اللهجات وميزاتها، وشكك بالمقابل في أصالة اللغة العربية في هذه البلاد وتناسبها مع طبيعة المجتمع الجزائري.

والى هذه النقطة أشار العلامة الشيخ البشير الإبراهيمي في مقال منشور له سنة 1948م بعنوان: "اللغة العربية في الجزائر عقيلة حرة، ليس لها ضرة"، ومما سطره في هذا المقال قوله: "اللغة العربية في القطر الجزائري ليست غريبة ولا دخيلة، بل هي في دارها، وبين حمايتها وأنصارها، وهي ممتدة الجذور مع الماضي، مشتدة الأواخي مع الحاضر، طويلة الأفنان في المستقبل، ممتدة مع الماضي، لأنها دخلت هذا الوطن مع الإسلام على السنة الفاتحين ترحل برحيلهم وتقيم بإقامتهم.

فلما أقام الإسلام بهذا الشمال الأفريقي إقامة الأبد وضرب بجرانه فيه أقامت معه العربية لا تريم ولا تبرح، ما دام الإسلام مقيماً لا يتزحزح، ومن ذلك الحين بدأت تتغلغل في النفوس، وتنساغ في الألسنة واللهوات، وتنساب بين الشفاه والأفواه، يزيد لها طيباً وعدوية أن القرآن بها يتلى، وأن الصلوات بها تبدأ وتختتم.

فما مضى عليها جيل أو جيلان حتى اتسعت دائرتها، وخالطت الحواس والشواعر، وجاوزت الإبانة عن الدين إلى الإبانة عن الدنيا، فأصبحت لغة دين ودنيا معاً.... وسلطت سحرها على النفوس البربرية فأحالتها عربية، كل ذلك باختيار لا أثر فيه للجبر، واقتناع لا يد فيه للقهر، وديمقراطية لا شبح فيها للاستعمار¹⁷.

كما سعت الجمعية لردّ سائر الشّبّه حول هذه اللّغة ودفع مختلف الطّعون والانتقاصات التي حاول المستدمر الغاشم كيلها لها، حتى وصل الحال بمشايخ الجمعية إلى عدّ الدّفاع عن العربية أحد مقاصد إنشائها، وعن ذلك يقول أديب الجزائر الإبراهيمي: "إنّ جمعيّتكم هذه أُسّست لغايتين شريفتين، لهما في قلب كلّ عربي مسلم بهذا الوطن مكانةٌ لا تساويهما مكانة، وهما: إحياء مجد الدّين الإسلامي وإحياء مجد اللغة العربيّة"¹⁸.

فمن ذلك دعوى عدم صلاحيتها للعلوم التجريبية قديما وحديثا، وهذا ما أجاب عنه البشير الإبراهيمي في مقال له حول اللغة العربية وفضلها على العلم والمدنية بين فيه الدور الذي اضطلعت به هذه اللّغة في سالف الدّهر، وذلك ما يؤهلها للاضطلاع بدورها في الزمن الحاضر فيقول: "لو لم تكن اللغة العربية لغة مدنية وعمران، ولو لم تكن لغة متسعة الآفاق غنية بالمفردات والتراكيب لما استطاع الأسلاف أن ينقلوا إليها علوم اليونان وآداب فارس والهند، ولألزمتهم الحاجة إلى تلك العلوم تعليم تلك اللغات، ولو فعلوا ذلك لأصبحوا عربا بعقول فارسية وأدمغة يونانية..."

إلى أن يقول: "قامت اللغة العربية في أقل من نصف قرن بترجمة علوم هذه الأمم ونظمها وآدابها فوعت الفلسفة بجميع فروعها والرياضيات بجميع أصنافها، والطب، والهندسة والآداب والاجتماع،... وهذا هو الجزء الضروري في الحياة الذي إما أن تنقله إليك فيكون قوة فيك، وإما أن تنتقل إليه في لغة غيرك فيكون قوة لغيرك.

وقد تظن أسلافنا لهذه الحقيقة فنقلوا العلم ولم ينتقلوا إليه، وقد قامت لغتهم بحفظ هذا الجزء الضروري من الضياع بانتشاله من أيدي الغوائل، وينقله إلى الأواخر عن الأوائل، وبذلك طوقت العالم منة لا يقوم بها الشكر، ولولا العربية لضاع على العالم خير كثير"¹⁹.

وهذا الكيد الإفرنجي المتعدّد وتلك الأساليب القهرية والقرارات الجائرة من طرف الإدارة الفرنسية حرك اهتمام العلماء والمفكرين، وأذكى غيرتهم على مقومات الوطن وثوابته، فتصدّوا لمجابهة السياسة الاستعمارية، ومقاومة أساليبها المنتهجة، فكانوا يبذلون وسعهم وطاقاتهم، ويواصلون ليلاً نهاراً من أجل العمل على نشر اللغة العربية في أوساط المجتمع الجزائري وإحياء مجدها بينهم.

وقد كان في طليعة هؤلاء علماء الجمعية، إذ وضعت الجمعية نصب أعينها رفض السياسة اللغوية الجائرة التي فرضت على الجزائريّ هجران لغته في مجال التعامل، وأعلنت الكفاح الصريح وبكل الوسائل من أجل الدفاع عن اللغة العربية وترقيتها وإحياء مجدها وزيادة اهتمام الناس بها حفظاً للمجتمع من الانصهار والزوال، مؤمنة في ذلك بنبل المشروع الذي كانت تضطلع به، ومستيقنة من عظمة الهدف الذي كانت تسعى إلى تحقيقه، صامدة في مواقفها حريصة على تنفيذ برامجها من خلال المساهمات الأدبية، والنشاطات العلمية، وكذا الممارسة الفعلية في الميدان.

والتّصوص المؤكّدة لذلك كثيرة مستفيضة، منها قول ابن باديس: "قد فهمنا - والله - ما يراد بنا، وإنّا نعلن لخصوم الإسلام والعربية أنّنا عقدنا على المقاومة عزّماً، وسنمضي - بعون الله - في تعليم ديننا ولُغتنا، رغم كلّ ما يصيبنا، ولن يصدّنا عن ذلك شيء، فنكون قد شاركنا في قتلها بأيدينا، وإنّا على يقين من أنّ العاقبة - وإن طال البلاء - لنا، وأنّ النصر سيكون حليفنا، لأنّا قد عرفنا - إيماناً - وشاهدنا - عياناً - أنّ الإسلام والعربية قضى الله بخلودهما، ولو اجتمع الخصوم كلّهم على محاربتهما"²⁰.

ويقول الإبراهيمي في نفس السّياق: "إنّ الشّعب الجزائري فرع باسق من تلك الدوحة الفينانة، وزهرة عبقة من تلك الروضة الغنّاء، عدّت عليه عوادي الدهر، فنسي مجد العروبة، ولكنّه لم ينس أبوتها، وابتلاه الاستعمار - عن قصد - بالبلبل؛ فأنحرفت فيه الحروف عن مخرجها إلّا الضّاد، ولم يبق من العروبة مع هذا وذاك إلّا سماتٌ وشمائل، ولا من العربيّة إلّا آيات ومخائل، وجاءت جمعيّة العلماء، على عبوس من الدهر، وتنكّر من الأقوياء، فنضخت من روح العروبة في تلك الأنساب؛ فإذا هي صريحة، وسكبت من سرّ البيان العربي في تلك الألسنة؛ فإذا هي فصيحة، وأجالت الأقلام في كشف تلك الكنوز فإذا هي ناصعة بيضاء، لم يزلها تقادّم الزمان إلا جِدّة"²¹.

وهذه الكفاحات المستميتة والنّضال الميرير من الإمام الإبراهيميّ وسائر رجالات الجمعية في الذود عن أحد أبرز مقومات الهوية الوطنية التي أراد الاستعمار طمسها ومحوها لم تكن لتذهب سدى في مهبّ الرّياح، بل ظهرت ثمارها مزهرة غضة، وبان حصادها يانعا طيبا، فكان للجمعية الفضل الكبير في

كسر الحصار الذي فرضته سلطة المستعمر على لغتنا وإفشال الحملة التي شنتها على هويتنا وتاريخنا.

ومما خطه الإمام البشير الإبراهيمي مبيناً أثر أعمال الجمعية في ازدهار العربية وارتفاع شأنها في أوساط المجتمع ما جاء في قوله: «قد أشرفت هذه اللغة الشريفة على الاضمحلال بهذه الديار لولا أن تداركتها جمعية العلماء وأخذت بيدها وانتشلتها من الحضيض الذي وصلت إليه، فاستعادت على يدها شبابها، ووصلت بسبب الدين الحنيف أسبابها، وأصبحت الجزائر في مدة قليلة تُفاخر أمصار العربية الكبرى ومنابتها الأصلية، بأدبها وكتّابها وشعرائها وخطبائها»²².

وحول ذلك أيضاً كتب الإمام ابن باديس قائلاً: "حُوريت فيكم العروبة حتى ظُنَّ أن قد مات منكم عرقُها، ومُسَخَّ فيكم نُطْقُها، فجئتم بعد قرن، تَصَدِّحُ بِلَابِكُمْ بأشعارها، فتثير الشعور والمشاعر، وتهدر خطابُكم بشقَاشِقِها، فتدكُّ الحصون والمعازل، ويهزُّ كتابكم أقلامها، فتصيب الكلى والمفاصل"²³.

وكانت النخب المثقفة ممن حمل لواء بناء الوطن المحرر بعد الاستقلال، أغلبها ممن تلقى تعليمه في مدارس الجمعية، وقد أنشأت الجمعية خلال سنوات نضالها قرابة ثلاثمائة مدرسة، يتعلم بها ما حوالي أربعين ألف تلميذ، ولم تكن الجمعية تنتظر تمام بناء المدارس، بل كانت تستعجل الشروع في التعليم العربي للصغار فيما تصل إليه أيديها من الأماكن، وفي البيوت ربحاً للوقت قبل بناء المدارس²⁴.

وهذا الاجتهاد الفعلي والنشاط المميز للجمعية أنشأ لها مناوئين لنشاطاتها وأبرز لها معارضين لمشروعها، ولا يخفى أن رأس هؤلاء المعادين هي الإدارة الفرنسية التي أمنت في محاربة جمعية العلماء بعد أن لاحظت تفاعل المجتمع وتجاوبه معها، ونلمس هذا في تقرير لمحافظة الشرطة الفرنسية بالبرج جاء فيه: "إن ازدياد نفوذ العلماء هو الخطر الحقيقي على السياسة الفرنسية، لأن هدفهم هو تكوين الإنسان المسلم، والإنسان المسلم هو الذي يرتبط بلغته وقرآنه ولا يرضى بأي اندماج، ولا يقبل السيادة الفرنسية".

ولم تستسلم الجمعية لهذه الضغوط فتحد من نشاطها أو تتراجع عن مخططاتها، بل كلما أغلق الفرنسيون مدرسة أو أوقفوا جريدة لها قامت الجمعية بإنشاء أخرى، وكلما أصدر المستعمر قراراً أو سنّ قانوناً إلّا وحشدت

الجمعية الرّفْض والإنكار له، وجيشت النّخبة المثقّة وسائر طبقات المجتمع ضده بالحبّة والبيّنة القاطعة، وبالحكمة والأسلوب الأمثل، فكسبت التأييد والدّعم المنشود، وحققت الغايات والأهداف التي سطرّتها، بشهادة النّتائج المحسوسة المحقّقة، وباعترافات مختلف الشّخصيات المعاشية والدّراسة لتلك الفترة.

وإضافة إلى معاداة المستدّمر الفرنسي فقد قابلت الجمعية مضايقات ومعارضة من بعض الشّخصيات الجزائرية والوجهاء الفاعلين على الساحة الوطنية من أمثال ثلة من النواب الحداثيين الفرنسيين، وأصحاب الخرافات والمشعوذين، وكذا من طرف اليهود والنّصارى والمبشرين.

وبفعل اجتهاد أعضائها ونضالهم، وحكمة قادتها وتبصّرهم، استطاعت الجمعية نشر علوم العربية بين الجزائريين وتلقينهم فنونها المختلفة، ومن نماذج ذلك ما اعتنى به بعض علماء الجمعية من تتبع فصيح الألفاظ وانتقاء مستقيم العبارات، ومن ذلك ما أشار إليه الإمام الإبراهيمي بقوله: «إنّ هذه الطبقات العامية التي تواظب على سماع الدروس والمحاضرات قد أصبحت تفهم العربيّة الفصحى حقّ الفهم بتأثير الممارسة والمران ... ولقد بدأت دروسي ومحاضراتي في تلمسان بالعربيّة الفصحى وأخذت نفسي بذلك أخذاً أصيل به إلى درجة الإغراب أحياناً، وكان لي من وراء ذلك الالتزام غرضان:

أحدهما: إقامة الدليل للمتعلّمين باللّغات الأجنبية على أنّ الفصحى لا تعيا على حمل المعاني مهما تنوّعت وعلت،

وأنّها تُبدُ (17) اللغات في ميدان التعبير عن الحقائق والخيالات والخواطر والتصورات، وقد بلغت من هذا الغرض ما أريد.

والغرض الثاني: أن أحدث في نفوس العامة المحبّين للعلم والدّين أسفا يقضّ مضاجعهم، فيدعّوهم إلى تدارك ما فاتهم منها في أبنائهم.

... ومازلنا على هذا حتى فعل المران فعله، وأصبحوا يفهمون ويدقّون ويخرجون وهم يتدارسون.

وقد رجعت إلى العاميّة في بعض الدروس فاستهجنوها، ونَبَتَ عنها أذواقهم، وإني لا أدري لماذا لا نعجب للعامي يتعلّم الفرنسية بالسماع، ونعجب - بل لا نكاد نصدق - له أن يتعلّم العربيّة بالسماع، مع أنّ العربيّة أقرب إلى عاميّة وفطرتة وروحه ²⁵.

وليتضح مقدار جهد الجمعية في إحياء اللسان العربي وتذليل نطق الجزائريين بمفرداته وأساليبه، فقد عقد أمير البيان في الجزائر مقارنة بين الظروف التي اشتغلت فيها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في المجتمع الجزائري وبين ما يعيشه القائمون على اللغة العربية فيقول -رحمه الله-: "هذا بعض ما قدمته جمعية العلماء للعروبة من صنائع لهذا الوطن، تفخر به في غير من، وتجدد به من غير ضن، ولولا الحياء لقاتل أكثر من ذلك ولتحدث كل العاملين في الشرق العربي لرفعة العربية وإعلاء شأنها بين اللغات بأنها عملت لها أكثر مما عملوا؛ عملوا لها وهم أحرار آمنون، في بلد لسانه وجنسها عربيان وحاكمه ومحكومها عربيان، وعملنا لها تحت تأثير زمجرة الاستعمار ودمدمة أنصاره، وأنقذناها من بين أنيابه وأظفاره"²⁶.

ومن بين ثمار اهتمام الجمعية بتعليم العربية وتنشئة الأمة عليها رقيها بالمجتمع الجزائري في سلم الحضارة المعاصرة، وتمكنها من تصحيح مفاهيمه وتجديد أفكاره، وتبصيرته بحقيقة ذاته وتعريفه خصوصياته، وبعث طاقاته وتفجير إمكاناته الكامنة، وصحح رؤيته للوطن واللغة والثقافة، فأدرك الشعب بذلك حقيقة وجوده وانتمائه، وعرف عظمة تراثه ونبل تاريخه.

ونتج عن ذلك أن قويت في هذا الشعب الروح الوطنية، وزاد اعتزازه بخصوصياته الحضارية، واتضح لديه الحقائق التاريخية، وعن ذلك يقول العلامة الإبراهيمي: "لو نشاء لقلنا إننا أحيينا اللسان العربي، والنخوة العربية، وأحيينا دين الإسلام وتاريخه المشرق، وأعدنا لهما سلطانهما على النفوس، وتأثيرهما في العقول والأرواح، وشأنهما الأول في الاتعاض والأسوة، فأحيينا بذلك كله الشعب الجزائري"²⁷.

ولعل أبرز آثار جهود الجمعية وأوضح نتائج كفاحها هو تهيئة الجزائريين للانطلاق في فك أغلال الاستعمار، وشحنهم للتخلص من ربة الاستعباد، وهو ما تحقق سريعا عبر تفجير ثورة نوفمبر المباركة، وإلى الدور البارز للجمعية في تفجير هذه الثورة نبه الشيخ البشير الإبراهيمي في مقال له بعنوان "أثر أعماله وأعمال إخواني في الشعب الجزائري" حيث قال: "أثر أعماله في الشعب بارز لا ينكره حتى أعداؤنا من الاستعماريين وخصومنا من إخواننا السياسيين، فمن كذا في المطبوع، ولعل الصواب: فقد [أثرنا] بث الوعي واليقظة في الشعب حتى أصبح يعرف ما له وما عليه، ومنها إحياء تاريخ الإسلام وأمجاد العرب، التي

كان الاستعمار يسد عليه منافذ شعاعها، حتى لا يتسرب إليها شيء من ذلك الشعاع....

وقد أصبح الشعب الجزائري بفضل جمعية العلماء، وما بدلناه من جهود في محو الرذائل، التي مكن لها الاستعمار، وتثبيت الفضائل التي جاء بها الإسلام، ولو تأخر وجود الجمعية عشرين سنة أخرى لما وجدنا في الجزائر من يسمع صوتنا، ولو سلكنا سبيلاً غير الذي سلكناه في إيقاظ الأمة وتوجيهها في السبيل السوي لما قامت هذه الثورة الجارفة في الجزائر التي بيّضت وجه العرب والمسلمين²⁸.

ويضاف إلى ذلك ما تحصل من نتائج مرتبطة بالجانب الحضاري والمشروع النهضوي الذي تبنته جمعية العلماء من مثل إحياء الرسالة الروحية للمسجد، واسترداد وظيفته التثقيفية والفكرية بتسخير علماء ومفكرين يجوبون مختلف أرجاء الوطن لإلقاء الخطب والدروس والمحاضرات العلمية بها، وكذا إنشاء المدارس الحرة في مختلف نواحي الوطن مع صياغة مناهجها التعليمية وبيان الطرائق البيداغوجية النافعة، زيادة على تأسيس مجموعة من الجرائد والصحف الإصلاحية التي لمت شمل العلماء والمتقنين وأبرزت آراءهم ونشرت أفكارهم، والحمد لله رب العالمين.

قائمة المصادر والمراجع:

- خالد العربي، الفكر الإصلاحى عند الشيخ العربى التبسى، مقال: منشور بالمجلة المغاربية للدراسات التاريخية، الصادرة عن مخبر الجزائر بجامعة بلعباس بالجزائر، ع 1.
- عبد الحميد ابن باديس، آثار ابن باديس، تح: عمار طالبى، دار الشركة الجزائرية، الجزائر، ط: 1، سنة: 1388 هـ - 1968 م.
- العربى التبسى، مقالات فى الدعوة إلى النهضة الإسلامية فى الجزائر، جمع: أحمد شريف الرفاعى دار البعث، قسنطينة، سنة: 1981 م.
- الفضيل الورتلانى، الجزائر الثائرة، دار الهدى، الجزائر، ط: 4، سنة: 2009 م.
- كمال عجالي، مهنة الصحافة وشروط الصحفي فى نظر الشيخ الطيب العقبي، مقال منشور فى مجلة الآداب، لجامعة منتوري بقسنطينة، ع 5.
- محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم: د. أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط: 1، سنة: 1997 م.
- محمد العربى الزبيري، تاريخ الجزائر المعاصر، منشورات اتحاد الكتاب العرب، د ط، سنة: 1420 هـ - 1999 م.
- محمد العبد آل خليفة، ديوانه، دار الهدى، عين مليلة - الجزائر، دط، سنة: 2010 م.
- مرتضى الزبيدي، تاج العروس، تح: عبد الستار فراج، مطبعة حكومة الكويت، سنة: 1391 هـ - 1971 م.
- ابن منظور الإفريقي، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط: 3، سنة: 1414 هـ.

الهوامش:

- ¹ آثار ابن باديس، تح: عمار طالبى، دار الشركة الجزائرية، الجزائر، ط: 1، سنة: 1388 هـ - 1968 م (ج 3/ص 243).
- ² آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم: د. أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط: 1، سنة: 1997 م (ج 1/ ص 134).
- ³ من كتاب: مقالات فى الدعوة إلى النهضة الإسلامية فى الجزائر، جمع: أحمد شريف الرفاعى دار البعث، قسنطينة، سنة: 1981 م (ج 1/ ص 44).
- ⁴ من مقال خالد العربى: الفكر الإصلاحى عند الشيخ العربى التبسى، نشر المجلة المغاربية للدراسات التاريخية الصادرة عن مخبر الجزائر بجامعة بلعباس، ع 1 (ص 75).
- ⁵ مقال: "الصحافة من هم رجالها"، جريدة البرق، ع: 5، بتاريخ: 4 أبريل 1927 م، نقلا عن: مهنة الصحافة وشروط الصحفي فى نظر الشيخ الطيب العقبي، لكمال عجالي، مقال منشور فى مجلة الآداب لجامعة منتوري بقسنطينة، ع 5، (ص 220 - 221).

- ⁶ الأبيات من بحر الكامل، وهي في ديوانه، دار الهدى، عين مليلة - الجزائر، د ط، سنة: 2010م (ص 210).
- ⁷ آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1ج/ص 134).
- ⁸ الضئانة من ضئبه ضئا وضئانة إذا بخل بئلا شئيدا ومكث بالمكان ونحوه لم يبرحه. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط: 3، سنة: 1414 هـ (ج 13/ص 261).
- ⁹ محمد البشير الإبراهيمي (ج 3/ص 281).
- ¹⁰ نفس المرجع والصفحة.
- ¹¹ البيتان من البسيط، وهما في ديوان محمد العيد آل خليفة (ص 50).
- ¹² الجزائر الثائرة، دار الهدى، الجزائر، ط: 4، سنة: 2009 م (ص 135).
- ¹³ آثار الإبراهيمي (ج 5/ص 150 - 151).
- ¹⁴ ينظر: خالد العربي، الفكر الإصلاحي عند الشيخ العربي التبسي (ص 75).
- ¹⁵ آثار ابن باديس (ج 3/ص 243).
- ¹⁶ آثار الإبراهيمي (ج 3/ص 344).
- ¹⁷ نفس المرجع والصفحة.
- ¹⁸ المرجع نفسه (ج 1/ص 133).
- ¹⁹ المرجع نفسه (ج 1/ص 376).
- ²⁰ آثار ابن باديس (ج 3/ص 244 - 245).
- ²¹ آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (ج 1/ص 21).
- ²² المرجع نفسه (ج 1/ص 286).
- ²³ آثار ابن باديس (ج 3/ص 555).
- ²⁴ محمد العربي الزبيري، تاريخ الجزائر المعاصر، منشورات اتحاد الكتاب العرب، د ط، سنة: 1420 هـ 1999م (ج 1/ص 203).
- ²⁵ آثار الإبراهيمي (ج 1/ص 149).
- ²⁶ نفس المرجع والصفحة.
- ²⁷ المرجع نفسه (ج 5/ص 288).
- ²⁸ المرجع نفسه (5/ 287).